الباب السابع

التربية فى القرن السابع عشر

التربية المادية

يراد بالتربية المادية نوع من التربية قَلَّ فيه الميل إلى دراسة الآداب ، واتجهت فيه العناية إلى دراسة الظواهر الطبعية والعلوم الاجتماعيـة التى تفيد الناس فى معاشهم وتصلح من أحوالهم . ولقد قويت هذه الحركة فى القرن السابع عشر وإن كان أصلها يرجع إلى عصر النهضة الفكرية الأوربية . ولقد تشعبت فيها الآراء حتى انجلت عن مذهبين متميزين : أحدهما المذهب المادى الأدبى ، وثانيهما المذهب المادى المدنى ، ولكل أنصار وَهَبُوا نفوسهم لترويج مذهبهم ونشر مبادئهم .

(١) المذهب المادى الأدبى

إن التربية المادية الأدبية التى دعا إليها كثير من المربين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، تشبه نوعا من التربية كان معروفًا فى ابتداء النَّهضة الفكرية ، ولكنها من وجه آخر تخالف تلك التربية الأدبية القاصرة التى سادت البلاد فى آخر عصور هذه النهضة . والباحث المدقق يرى أن رجال التربية المادية الأدبية ورجال تلك التربية الأدبية القاصرة ، متفقون على أن اللغات والآداب القديمة هى التى يجب أن تتكون منها وحدها مناهج الدراسة . وكلا الفريقين يعتبر هذه الآداب أسمى ما تزود به العقول الإنسانية ، ويعدها أنفس ما يحرص عليه الإنسان ، إلَّا أنهما يختلفان فى فى الغرض من دراستها ، فرجال التربية الأدبية القاصرة يدرسون الآداب واللغات لذاتها ويرمون إلى تكوين رجال يلهجون بلغة لاتينية فصيحة . أما رجال التربية المادية الأدبية فلم يدرسوا هذه الآداب رغبة فى التراكيب والأساليب ، وإنما أرادوها لمادتها

وما تحويه من مختلف المعارف والفنون ، فإنهم كانوا يرون أن الغرض من التربية خبرة الانسان ومعرفته ما يحيط به من مظاهر الحياة الطبعية والاجتماعية ، ولكن من طريق الرجوع إلى حياة الأقدمين والخبرة بشئونهم ، لأنهم كانوا يذهبون إلى أن دراسة الحياة الغابرة من طريق لغات الأقدمين وآدابهم أقوى فى تفهم الحياة الحاضرة ، وأجدى فى الوقوف على أسرارها من دراسة الظواهر الطبعية والاجتماعية التى تحيط بالإنسان . نعم كانوا فى بعض الأحايين يلجئون إلى الطريقة العملية الأخيرة إذا رأوا أنها تساعدهم على فهم ما يقرءون من كتب الآداب .

ولهذا المذهب أنصار كثيرون ، منهم إرزْمَس الذى قدمنا الكلام فيه ، ورَابِلى الفرنسى (١٤٨٣ – ١٥٥٣) وجون مِلْتُن . ولنترجم لهذا الأخير ترجمة تزيد القارئ خبرةً بأصول هذا المذهب ونظرياته .

جُون مِلْتُن

هو أكبر شعراء الإنجليز بعد شكسبير ، وأوسعهم معرفة باللغتين الإغريقية واللاتينية. ولد سنة (١٦٠٨) فعُنِى والده بتربيته وأحضر له المؤدبين فأحسنوا تأديبه فى المنزل . ولما بلغ الثانية عشرة من عمره أدخله مدرسة القديس «بولص» حيث أظهر كفاية نادرة وميلاً عجيباً إلى صناعة الشعر ، ثم انتقل بعد خمس سنوات أنفقها فى هذه المدرسة إلى كلية المسيح بكمبردج ، فأقبل فيها على العلم ودرس مناهج الجامعات ونبغ فى الآداب قديمها وحديثها ؛ وهناك أكثر من معالجة الشعر فقال فيه شيئاً كثيراً عده الناس من نفائس الآداب . وفى سنة ١٦٣٨ رحل الى ايطاليا فأحسن أهل الأدب وفادته ، وكثر هناك أصحابه ومحبوه ، وقرض بينهم شعره باللاتينية ، فسار ذكره فى طول البلاد وعرضها ، ونفحه الكبراء ، والأمراء بالهدايا . ولما رجع الى بلاده أقبل على الشعر والكتابة فى الشئون العامة والخاصة . وقد أصيب فى آخر أيامه بداء الملوك فبرحت به آلامه ، ولم يزل يشكو علته حتى مات سنة ١٦٧٤ .

لم يكن ملتن من رجال الأدب فحسب ، بل كان من أساطين التربية ورجالها

العاملين . اشتغل بالتعليم بعد عودته من إيطاليا ، وكتب رسالة فى التربية عدها الناس من أوضح ما كتب فى بيان المذهب المادى الأدبى وتفصيل نظرياته . ولقد طعن فيها على التربية الأدبية المحضة ، وغضَّ من مناهجها وأساليبها المسلوكة فى وقته ؛ فمن ذلك أنه استهجن ما اعتيد فى هذه التربية من توجيه الطلاب كلَّ عنايتهم إلى الجانب الكلامى من اللغة وإهمال الجانب المادى كل الإهمال ، فقد كان الطلاب لا يُعنَون إلاّ بمعرفة الكلمات والأساليب ، ولا يبالون ما ضُمِّنَتْه من مختلف العلوم والفنون . ومما أخذه أيضاً على هذه التربية أنها تقتصر فى تعليم الأطفال على دراسة اللغتين الإغريقية واللاتينية ، وتهمل غيرهما من اللغات التى تحوى الكثير النافع من علوم الأقدمين ومعارفهم .

وقد أتى بعد ذلك فى رسالتهِ على تفصيل أعمال المدارس التى تقام لتربية النشء بين الثانية عشرة والحادية والعشرين من أعمارهم ، فأوجب أن يدرس التلميذ فى السنة الأولى منها قواعد اللغة اللاتينية ، والحساب والهندسة وشيئاً من تهذيب الأخلاق ، ثم يؤخذ بعد ذلك بدراسة الزراعة فى الكتب اللاتينية ، ثم التاريخ الطبعى وتقويم البلدان والطب وهندسة المبانى فى كتب الإغريق ، وأوجب فوق ذلك أن يستتم الطالب دراسة هذه العلوم بمطالعة ما وضع فيها من الشعر القديم ، وبهذا يتعلم الطالب اللغتين الإغريقية واللاتينية تبعاً لدراسة العلوم والفنون ، فإن كل كتاب يقرؤه وإن كان مقصوداً لمادته يكسبه خبرة بأساليب اللغة التى كتب بها . وفى السنوات الأخيرة من هذه المدرسة تدرس الأخلاق والاقتصاد والسياسة والتاريخ وأصول الدين والمنطق وعلوم البلاغة والإنشاء والخطابة ، وكل ذلك من طريق دراسة الكتب القديمة التى عالجت هذه الموضوعات . ولا بد مع هذا كله من دراسة اللغات العبرية والكلدية والسريانية ، فإنها حوت كثيراً من علوم الأقدمين ومعارفهم

ولقد خدم هذا الشاعر برسالته التربية أجل خدمة ، فإنه فضلاً على نقده التربية السائدة فى وقته وإرشاده إلى طرق الإصلاح ، وضع للتربية تعريفاً ينطبق على أسمى وأنبل نوع منها فقال : «التربية التامة الصالحة هى التى تعد الرجل لأداء الأعمال خاصها وعامها بإحكام ومهارة وذمة أثناء الحرب والسلم » .

المذهب المادى المدنى فى التربية

تطلق التربية المادية المدنية على مذهب فى التربية رآه جماعة من المربين فى القرون الماضية ودعوا اليه ، ولكن لم يلق نجاحاً إلا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، فقد كثر إذ ذاك اقبال الناس عليه ، واشتدت عناية المربين بشرحه وتفصيل نظرياته .

نظر أنصار هذا المذهب الى التربية الأدبية ومدارسها بشىء من الريبة ، وذهبوا الى أنها فى أرقى درجاتها لا تكفى للنهوض بالإنسان الى الحياة الكاملة حياة النبل والظرف . ومما يؤثر فى هذا الشأن عن «مونتين» زعيم هذه الطائفة قوله : «إذا كانت التربية لا تهدى الطفل الطريق السوىّ ولا تجعله ثابتاً رزيناً لبقاً ، فخير له أن يصدف عنها و ينفق جميع أوقاته فى اللهو واللعب ... إنك اذا راقبت ولدك مراقبة دقيقة حين يعود اليك من مدرسته وقد أنفق فيها من عمره خمس عشرة سنة أو أكثر ، لم تجد أقل منه دربة ولا أجف طبعاً ، فهو لا يصلح لعِشْرة ولا ينفع فى عمل . يعود اليك من مدرسته ولم يستفد منها سوى عجب ممقوت وصلف مرذول وافتخار بمعارفه فى اللغتين اللاتينية والإغريقية»

فالتربية الصحيحة عند هؤلاء هى التى تهذب الطباع ، وتكوّن العقول تكويناً يضمن للنشء حياة عملية نافعة ناجحة مملوءة بالمسرات . ولم يرَ أصحاب هذا المذهب وسيلة أجدى فى الحصول على هذه الغاية من الأسفار ، فهى عندهم أقوى عوامل التربية . ولذلك أوجبوا على كل طالب أن يرحل الى البلاد النائية رحلة طويلة أو رحلتين ، ليكسب بذلك تجاريب نافعة ، ويزداد بصراً بأحوال الناس وعاداتهم . ولقد غضَّ أنصار هذا المذهب من قيمة العلوم ، وأنزلوها من ذلك المكان الرفيع الذى بُوِّئته عند غيرهم ، وقالوا إنها وسيلة يمجد الناس من شأنها وهى فى الحقيقة قليلة النفع فى الحصول على الغاية المنشودة ، فان غاية التربية عندهم هى الحياة الخلقية النافعة التى تأتى من المخالطة والمعاشرة ، لا الحياة العقلية التى سبيلها دراسة العلوم .

ومن أكبر زعماء هذا المذهب الفيلسوف «مونتين» وإلى القارىء صفحة من حياته فإنها حياة مملوءة بآراء ناضجة فى التربية .

مُونْتين

هو ميشيل دى مونتين من سَراة فرنسا وأبطال الكتابة فيها ، كان أشجع أهل زمانه على النقد ، ومن أقدرهم على معالجة الموضوعات الفلسفية والخلقية ، ومن أوسعهم خبرة بآداب الأقدمين وعلومهم .

ولد بضَيْعة أسرته ببلدة «پْريجورْد» من أعمال فرنسا سنة ١٥٣٣ فعنى والده بتربيته ، وكانت له آراء خاصة فى تنشئة الأطفال عادت بنتائجها المرضية على هذا الوليد . وأول خطوة غريبة خطاها فى تربيته أن أرسله بعد ولادته بقليل إلى قرية صغيرة من قرى ضيعته ، لينشأ بين أهليها بعيداً عن ترف الحضارة محباً لعيشة البداوة ميالاً الى الفقراء ، فظهرت آثار هذه التربية ظهوراً بيناً فى حياة مونتين ، إذ كان فى كبره كثير الميل إلى جيرانه الفقراء ، يذْكرهم بما يدل على ما فى قلبه لهم من الإجلال والاحترام ، ويراعيهم بنوع من العطف لم يكن معهوداً فى العصور التى عاش فيها ، ولا مألوفاً بين الطبقات التى هو منها ، ولقد كان أكثر الناس أيام طفولة مونتين يعتقدون أن الطفل لا ينبت نباتاً حسناً ولا يصير رجلاً نافعاً فى الحياة إلاّ إذا خاشنه المربون وروّعوه فى عهد طفولته ترويعاً يعد الآن من أكبر أنواع القسوة الوحشية ، إلا أن والده « بِيرى مونتين» خالف أهل زمنه فى ذلك ورأى أن يحاسَنَ الطفلُ وأن يستنفد المربون وسعهم فى جعل حياته سعيدة مملوءة بالمسرات ، وقد ربى ولده على الرأى الذى رآه ، فأظهر فى معاملته منتهى الحنان والرأفة ، وأبدي من الشفقة ورقة القلب ما لم تحلم به التربية فى هاتيك العصور . يدلك على ذلك أنه حين سمع أن إيقاظ الأطفال من النوم بغتة يؤثر فى أعصابهم الغضة اللينة ، عمل على ألا يوقظ ولده كل صباح إلا بنغمات موسيقية توقع بجانبه على غاية من اللطف .

ولما كان هذا الأب الشفيق يطمع فى أن يكون ولده متأدباً وكانت المعرفة باللغة اللاتينية شرطاً فى ذلك ، فكر فى طريقة تجعل دراسة هذه اللغة سارة مُبْهجة لطفله ، وكان المألوف قبل ذلك أنها عبء من أثقل الأعباء على الأطفال . وقد أداه طول

البحث ألا يتعلم ولده فى صغره سوى هذه اللغة ، وألا يستعمل فى الحديث لغة غيرها، فلم يكلمه معلمه – وكان ألمانياً – إلا باللاتينية الفصحى، ولم يخاطبه والداه إلاَّ بها ، ولم يحدثه محدث من أفراد أسرته بلغة أخرى ، فكان أثر ذلك أن صار مونتين من عهد طفولته أقدر أهل زمانه على الحديث بهذه اللغة .

هكذا كانت تربيـة مونتين فى منزله ، ولما بلغ السادسة من عمره أرسله أبوه إلى مدرسة «بُرْدُو» فأنفق فيها من عمره سبع سنوات ، وكانت من أحسن المدارس إذ ذاك فى فرنسا ، إلاَّ أن الدراسة فيها كانت مقصورة على مطالعة الآداب اللاتينية على مألوف المدارس الأوربية الراقية فى ذلك العصر . ولذلك لما كبر مونتين وصار من رجال التربية المادية المدنية ونصب نفسه لنقد التربية الأدبية السائدة فى زمنه ، عَرَّض بهذه السنوات السبع التى أنفقها فى مدرسة بُرْدُو وقال إنها ذهبت من حياته سدى . ثم انتقل من بردو الى باريس فدرس القانون ونبغ فيه واتصل بالقصر الملكى

وفى سنة ١٥٥٧ عين عضواً فى مجلس بردو وبقى فى هـذا المنصب ثلاث عشرة سنة أقبل فيها على الأدب فأضاف اليهِ شيئًا كثيراً بما ترجمه وكتبه . ولما مات والده ورث عنه ضيعة الأسرة فانتقل اليها وأقام بها طول حياته ، وعاش فيها عيشة الأشراف القرويين . ولمـا وجد أن حياته فى الريف بعيداً عن حضارة المدن ربما أسلمته إلى الهموم والأخيلة المضنية ، عمد الى القلم واستحث جواد الفكر فأملى عليه خواطر نادرة فى الأدب والفلسفة صار بها طليعة الكتاب فى عصره .

وفى سنة ١٥١٨ رحل الى ألمانيا وسويسرا وايطاليا رحلة طويلة دعاه اليها ضعف صحته وشغفه برؤية الممالك النائية . وفى أثنائها جاءته الأنباء بأنه اختير محافظاً لمدينة بُرْدو فامتنع عن قبول المنصب لقلة ميله الى الحياة العملية ، إلا أن إلحاح أصدقائه ورغبة مليكه اضطراه الى القبول . وقد مُنى فى آخر حياته بأمراض شديدة مات منها فى الستين من عمره سنة ١٥٩٢ .

ولقد رزق هذا الفيلسوف فى إقبال الناس على مطالعة مؤلفاته حظًّا عظيماً يماثل

حظ « شكسبير » عميد الشعراء الإنجليز . أما المعجبون بآرائه وأفكاره فحدث عنهم ولا حرج ، فمنهم بَسكال وغيره من أهل الذكاء والنبوغ فى كل عصر ، وكلهم يدين له بالجرأة المحمودة فى النقد .

آراؤه فى التربية وأغراضها

لهذا المربى رسائل ممتعة فى التربية نقد فيها الأساليب والمناهج المسلوكة فى زمنه ، وشرح فيها المذهب المادى المدنى بأوضح عبارة وأجلى بيان . ولقد اتبع فى كتابة رسائله ما كان مألوفًا بين الأدباء فى عصره من المغالاة فى اقتباس عبارات الأقدمين وتضمين معانيهم ، والإشارة إلى كثير من حوادثهم وأحوال معايشهم ، حتى أصبحت رسائله بذلك معرضًا تتجلى فيهِ معارفه وخبرته الواسعة بالآداب القديمة . ولكنه على الرغم من ذلك لم يكن من أنصار التربية الأدبية كما وهم كثيرون ، فإنهُ كان من الساخطين عليها والناقمين على مناهجها وطرائقها . نعم كان يرى من الحسن أن يعرف الإنسان قليلاً من الآداب القديمة ليذوق منها طعم ما حوته من العلوم والفنون ، ولكن على شريطة أن يكون ذلك أمراً كمالياً محضًا خارجًا عن حدود التربيـة الواجبة . ولقد أكثر من الطعن على هؤلاء الذين غالَوْا بقيمة العلوم والآداب وظنوا أن التربية كل التربية فى ورود حياضها وارتشاف مناهلها . ومن قوله فى ذلك « إنا كثيراً مانقول مفتخرين : هذا ما قاله شيشيرون - هذه آراء أفلاطون - هذه كلمات أرسطو - تلك كانت طرائق سقراط . ولكن أين ما نذكره عن آرائنا الخاصة ؟ أين ما نعجب من أعمالنا وأفعالنا ؟ أين ما نفتخر به من عقولنا وتصريفها للأشياء ؟ » . ومن قوله فى ذلك أيضًا : « ما أشبه المعلمين فى هذا الزمان بكبار الطير ! تذهب إلى الحقول تنقب فيها عن طعام لصغارها ، فتجمع من هنا وهناك كل ما صادفها ، حتى إذا ما ملأت مناقيرها بالحب عادت فألقته فى مناقير أولادها من غير أن تذوق له طعماً . فالمعلمون اليوم كذلك ينقبون فى الكتب ويجمعون منها مسائل العلوم والفنون من غير تمييز بين ما يفيد التلميذ منها وما لا يفيـده ، ثم يضعونه على أطراف ألسنتهم ، حتى إذا صاروا بين

التلاميذ تفلوه بينهم ، وكلفوهم حفظه وإعادته . فهم بذلك يشجعوننا على الاستجداء ونحن أغنياء ، ويدربوننا على أن نملأ أعيننا من أشياء غيرنا ونترك أشياءنا مجفوّة مهملة » .

ولقد رأى مونتين رأى الأقدمين فذهب إلى أن العقل الحكيم فى الجسم السليم ، ولذلك أوجب العناية بالتربية البدنية وحث على تمرين الحواس تمريناً صحيحاً . ومن آرائه البداءة بتعليم لغة البلاد على خلاف ما كان مألوفاً فى زمنه ، إذ كان الناس يعلمون أولادهم عتيق اللغات ويهملون لغة البلاد إهمالاً . ولما كان رأيه فى كل ذلك يوافق رأى الماديين الحسيين لم يكن عجيباً أن رأينا كثيراً من الكتاب والمؤرخين يدرجونه فى صفوف هؤلاء ، ولكنه على الرغم من ذلك ليس منهم ، فهو يخالفهم من وجوه كثيرة ، إذ لم يبال كما بالَوْا دراسة علوم الطبيعة وظواهر الكون ، ولم يذهب كما ذهبوا إلى التمجيد من شأن العلم وعده غاية من غايات التربية ، فان غايتها عنده « الفضيلة » فحسب . وفى الحق أن تقويم الأخلاق أجدى وأنفع من كل علم يستنبط من كتاب .

رأيه فى مناهج الدراسة وأساليبها

سئل أحد فلاسفة الإغريق ذات مرة فيما يجب أن يتعلمه الأطفال ، فقال : « علموهم فى الصغر ما يجب أن يعملوه فى الكبر » ولقد صادفت هذه المقالة هوى فى نفس مونتين فاقتبسها غير مرة فى رسائله واتخذها قاعدة فى اختيار مواد الدراسة . وكان لذلك يمجد المربين الإسبرطيين لأنهم غضوا من الآداب والعلوم ، وغالوا بالأعمال والأخلاق على خلاف ما جرت به عادة إخوانهم الأثينيين ، ففى أثينا كانت العناية شديدة باللفظ والتعبير ، وفى اسبرطة كانت النفس موجهة الى فحص الحقائق والأشياء . فى أثينا كان الحَدَثُ يدرب على مدافعة أهل الجدال ومنازلة من يريدون خداعه بقوة البيان ، وفى اسبرطة كان يراض على مقاومة الهوى النفسى ومدافعة أرزاء الزمان . فى إحدى المدينتين كانت الغاية تقويم اللسان ، وفى الثانية كانت الغاية تهذيب النفس وتثقيف الجنان .

ومع هذا لم يرَ «مونتين» إهمال دراسة العلوم المألوفة إهمالاً ، فقد استحسن أن تمنح قسطاً من العناية على شريطة أن تكون لها المرتبة الثانية فى تربية النشء ، وأن يُختارَ لدراستها أقوم طريق يربى فى الطفل عادة التفكير وفضيلة الاعتماد على النفس . ومن قوله فى ذلك : « إذا فرغت من أخذ طفلك بما يجعله حازماً خيّراً فلا ضير أن تأخذه بعد ذلك بشىء من مبادئ المنطق والطبيعة والهندسة وعلوم البلاغة » .

أما رأيه فى طرق التعليم فهو نتيجة لازمة لرأيه فى التربية وأغراضها ، فقد طعن على طريقة الحفظ عن ظهر قلب ، وقال ان استعادة الدرس بلفظه غير مجدية ، و إنما الطريقة المثلى أن يعاد بأسلوب عملى محض ، فانظر الى صلاح تلميذك واستقامته من سلوكه ، وتعَرَّفْ لطفه وعقله من حديثه ، واسبرغور شجاعته بتجلده عند الشدائد ، واختبر عفته واعتداله بمراقبته فى ملاذه ومسراته .

آثار المذهب المادى المدنى فى المدارس

لم يكن هذا المذهب من المذاهب التى اتسع لها المجال فى المدارس ، فان اهتمامها وقتئذ بتعليم قواعد اللغات وعلوم البلاغة حال بينهـا وبين التفكير الكثير فى الحياة العملية السعيدة ، وكذلك كانت عنايتهـا الشديدة بملء حوافظ النشء بقضايا العلوم وشذرات الآداب تعوقها قليلاً أو كثيراً عن النظر فى طرق تهذيب الأخلاق وتثقيف المدارك . وعلى الرغم من ذلك قد وجد هذا المذهب ميداناً فسيحاً فى رسائل التربية ومقالاتها ، فكتب فيه كثير من أئمـة المربين الذين عُرِفوا بميلهم إلى التعليم وإصلاح طرائقه .

المذهب المادى الحسى

لم يقصد العلماء لشرح هذا المذهب ووضع نظرياته إلاَّ فى القرن السابع عشر ، وهو مبنى على المذهبين السابقين ومنبثق عنهما ، ويعد أنصاره أول من أسس نظريات التربية على العقل ، لا على مجرد الخبرة والتجاريب العملية ، وسيأتى لذلك تفصيل .

وأساس هذا المذهب أن الحواس وسائل الإدراك وأسباب العلم فى الإنسان ؛ ولذلك كان من أكبر مميزاته تمرين الأطفال على الإدراك الحسى أكثر من تمرينهم على الحفظ والذكر ، وأن تغير مناهج الدراسة فتستبدل بدراسة الآداب مثلاً دراسةُ مظاهر الكون وآثار الطبيعة . وهذا هو السر فى تسمية هذا المذهب بالمذهب المادى الحسى . نعم إن ما تقدم قد يؤيد ما ذهب إليه بعض العلماء من تسمية هذا المذهب بمذهب الحركة العلمية الأولى فى التربية ، غير أنا نفضل التسمية الأولى لأنها تبين رابطته بالمذهبين السابقين بجلاء ووضوح .

الارتقاء العلمى والمذهب المادى الحسى

إن أنواع الكشف الحديثة التى ظهرت فى الطبيعة بفضل جماعة من المفكرين مثل كُوبَرْنيق الألمانى (١٤٧٣ – ١٥٤٣) وغاليلو الإيطالى (١٥٦٤ – ١٦٤٢) ، وكذلك ضروب الاختراع الجديدة التى وصل إليها كثير من أهل الذكاء والنبوغ ، يرجع إليها الفضل فى نشأة هذا المذهب ونهضته ، فانها أثرت تأثيراً عظيماً فى عقول المشتغلين بالتربية ، فقد أورثتهم حب الطبيعة وملأت نفوسهم باحترامها و إجلالها ، فولوا وجوههم إليها معتقدين أنها المورد العذب لكل علم صحيح ، حتى لقد ذهبوا إلى أن التربية طريقة طبعية لا صناعية ، وأن قوانينها وأصولها التى يجب أن تستند إليها كامنة فى الطبيعة يستطيع الإنسان كشفها بقليل من التأمل فى آثار الوجود . وسيأتى لذلك تفصيل .

وقد أثر هذا الاعتقاد فى آراء الماديين الحسيين من جهتين أشرنا إليهما فيما سلف : أولاهما أنه ولد فيهم الميل الى وضع علم للتربية مؤسس على بحوث علمية عقلية لا على مجرد الخبرة والتجاريب العملية ؛ وثانيتهما أنه رغبهم فى إحداث تغيير فى مناهج الدراسة يقضى بأن تستبدل بالآداب واللغات موضوعاتٌ أخرى مختارة من العلوم الطبعية والحياة الاجتماعية الحاضرة . ويقضى الأمر الأول بأن تدرس غرائز الأطفال وعقولهم ، وأن يبذل الجهد فى تعديل طرق التربية تعديلاً تلائم به هذه العقول .

ويقضى الثانى بدراسة اللغات الوطنية فى السنوات الأولى من الحياة المدرسية واستعمالها فى تدريس الفنون والعلوم . ويعد هذا من أكبر أنواع الإصلاح العملى الدائم فى التعليم.

الأسلوب الجديد فى التربية

لما استقر الرأى على وجوب تغيير مواد الدراسة مست الحاجة إلى أسلوب جديد يلائم هذه المواد ، فاهتدى الباحثون إلى الأسلوب الموسوم بالاستدلال الاستقرائى ، وهو وإن كان من الأساليب القديمة التى اهتدى المفكرون إلى استخدامها منذ أزمان أفلاطون ، يرجع الفضل فيه إلى الفيلسوف الانجليزى « فرنسيس بيكون » . لأنه هو الذى هذبه وشرح فوائده ونشره بين طوائف المفكرين والمربين . وقد تعلق به كل من أتى بعد هذا الفيلسوف من جماعة الماديين الحسيين ، إذ وجدوه أجدى وسيلة لحل كل معضلة فى التربية . ولقد انجلى هذا عن فكرة تدعو إلى أسلوب عام للتعليم يؤخذ به الأطفال كافة فى جميع مواد الدراسة على طريقة مقبولة ، فتم ذلك على أحسن حال .

نظام المعارف الجامعة

إن المفكرين والكاتبين فى ذلك العصر لما رأوا خيبة المسعى فى محاولة إصلاح حال الانسان من وراء إحياء الآداب والعلوم القديمة أو من طريق الإصلاح الدينى ، ولوا وجوههم شطر العلوم الحديثة ، وحولوا أنظارهم نحو الأسلوب الجديد ، ورأوا أن نشر العلوم الطبعية بين الناس كافة ، وترتيب المعارف والعلوم على طريقة قويمة ، وتوسيع المناهج الدراسية ، واستخدام الأسلوب الجديد ، رأوا أن كل ذلك يعلى من فكر الانسان ويصل به إلى درجة من العلم لم يصل اليها إلا القليلون من أهل الذكاء فى العصور الغابرة . وقد عرفت هذه الحركة عندهم بحركة نظام المعارف الجامعة

ويؤمل شيعة المذهب المادى الحسى من وراء نظام المعارف الجامعة خيراً كثيراً كما أسلفنا ؛ فإنهم يرون أن العلم إذا هذبت أصوله وفروعه ورتبت مسائله ، أصبح سهل المأخذ قريب التناول وأصبح كل فرد قادراً على تحصيله ، وبذلك تُفتَّح للانسان أبواب الكشف والاختراع والإصلاح . كذلك يرون أن الأسلوب الجديد

واللغة الوطنية إذا عم استخدامهما فى التعليم، سهّلا على الانسان دراسة اللغات اللاتينية والإغريقية والعبرية، وأقدراه على إتقان جميعها فى زمن أقصر مما كان ينفق فى تحصيل واحدة منها على النظام القديم.

ولقد بنى هؤلاء على توحيد أسلوب التربية وموادها آمالاً كثيرة: أولها الحصول على لغة واحدة تستعمل بين جميع أفراد المملكة الواحدة بدلاً من هاتيك اللهجات الكثيرة، ثانيها الاستعانة بتوحيد اللغة على أن يكون للأمة دين واحد، ثم الاستعانة بتوحيد اللغة والدين على أن تكون هناك حياة سياسية واحدة تجمع بين الأفراد وتؤلف بين قلوبهم جميعًا.

هذا ولم يكن لهذه الآراء التى جاء بها القرن السابع عشر إلاَّ تأثير يسير فى المدارس، ولكنها شغلت عقول المفكرين. فامتدت إليها أقلام الكاتبين، وتنفست بها الرسائل والكتب فى كل مكان.

أشياع المذهب المادى الحسى

لهذا المذهب أنصار كثيرون فى بقاع مختلفة من أوربا. منهم « پِتْرُرَمُوس » الفرنسى، و «لُودِيفيكوڤيفس» الأسبانى. والمربون الانجليز «مَلْكَسْتَر». و«هَارْتْلِب». و « بِيكُون » . ثم عمدة المربين الألمان « كُومِنْيُوس » . ولنترجم لبعض هؤلاء تراجم مختصرة تزيد القارئ بصرا بالمنحى الذى سلكته التربية فى القرن السابع عشر.

(١) فرَنْسِيس بِيكُون (١٥٦١ — ١٦٢٦)

هو أصغر أولاد السر «نيقولا بيكون» حافظ أختام الملك فى عهد الملكة «اليصابات»، وقد تربى تربية حسنة، ودرس علومه فى كمبردج، واشتهر بطيب المحاضرة بين أصدقائه ومعارفه، وكانت الملكة اليصابات ترى فى آرائه من الإصابة وفى برهانه من القوة وفى مسلكه من الرزانة ما يعجبها. وكثيراً ما كانت تدعوه على سبيل الدعابة بحامل أختامها الصغير. وقد رحل إلى فرنسا بعد إتمام دراسته فى كمبردج فجال فى أنحائها وألف فى أثناء رحلته كتابه المسمى « حال أوربا » وهو من أنفس مؤلفاته وكانت سنه إذ ذاك لا تزيد على ١٩ سنة

وفى سنة ١٥٩٣ انتخب للمجلس العالى فكانت له مواقف مشهورة فى إصلاح القوانين . وفى حكم جمس السادس نال حظوة كبيرة وأخذ فى عهده يتدرج فى المناصب العالية حتى صار حافظاً للأختام ، ثم نائباً عاماً ، ثم عضواً فى الديوان الخاص ، وقد قام فى أثناء ذلك بكثير من ضروب الاصلاح النافعة للوطن كوفئ عليها أحسن مكافأة .

كان «بيكون» من أكثر أهل زمانه بصراً بقوانين البلاد ونظمها ، وله مؤلفات كثيرة فى السياسة والدين والتاريخ والآداب والمنطق والفلسفة ، وكان غزير المادة حاد الخاطر ، متأنياً فى بحثه ، مدققاً فى تنقيبه ، تتولد المعانى الدقيقة فى عقله بسرعة غريبة ، وكان يرمى فى مؤلفاته الى إحياء العلوم ، وترتيب مباحثها ، ونبذ الأقيسة السقيمة التى كانت شائعة إذ ذاك فى استنباط الحقائق ، وكان يوصى بالالتجاء الى الملاحظة والتجاريب النافعة التى تساعد فى فهم الطبيعة وكشف خواصها .

بيكون والأسلوب الجديد

لم يكن الفيلسوف بيكون أول من وفق إلى استخدام الأسلوب الجديد فى البحث عن الحقائق ، فقد استخدمه من قبله كبار الفلاسفة فى العصور القديمة والحديثة ، غير أن استخدامهم إياه كان بطريق المصادفة وعن غير قصد ، ولم يتنبه واحد منهم إليه حين استخدامه . فلما جاء هذا الفيلسوف تنبه له وشرحه وهذب قواعده وحث الناس على استخدامه فى العلم وأشار الى طرق الانتفاع به فى التربية . وقد عاب فوق ذلك أسلوب الاستدلال القياسى المعروف بين الناس بأسلوب إرسطو وحث على نبذه وتركه .

آراؤه وآثاره فى التربية

لم يكن هذا الفيلسوف معلماً ، ولم تظهر مباحثه فى التربية إلا فى مواضع قليلة متفرقة فى رسائله ، ولم يرسم خطة واضحة لتغيير نظام التعليم المسلوك فى عصره ، ولكنه على الرغم من ذلك أبدى فى إحدى رسائله عناية عظيمة بتقدم العلوم وارتقاء التربية العالية وسلك فى ذلك سبيل الخيال ، فصور له الوهم معهداً علمياً سماه « منزل سليمان » وخيل إليه الطلبة فيه وقد كشفوا القناع عن كثير من خبايا العلوم والفنون التى لم

يقترب منها العلماء إلاّ فى هذه الأيام . فمن ذلك ارتقاء الأجناس الحيوانية والنباتية ، والحقن المصلى تحت جلود الحيوان والإنسان ، ومنهـا المناظير والمسرات والغواصات وآلات البخار والطيران ، وغيرها كثير .

وقد أشار فى رسالته هذه إلى أن العلوم والمعارف يجب أن ترتب ترتيباً جديداً يُسَهِّل على النشء تحصيلها فى كل درجة من درجات التعليم ، وأوجب أن تهذب تهذيباً يساعد على ارتقاء حال الإنسان ، وذلك بتأسيسها على العلوم الطبعية الحديثة لا على الفنون والآداب القديمة .

وفى رسالة أخرى سماها « تقدم العلوم » نصح بمناهج واسعة للتعليم ، وأوجب العناية بإعداد الاجهزة والآلات التى تفيد فى البحوث العلميـة وتعين على الاختبار والتجارب ، وأرشد إلى مايجب أن يكون بين معاهد التعليم من الارتباط والتضافر ليكون التعليم موحداً ولتكون حلقاته متينة الاتصال . وهذا هو نظام المعارف الجامعة الذى قام بإصلاحه وتهذيبه فيما بعد علامة عصره « كومنيوس » .

وبهذا يتبين للقارئ أن الفيلسوف بيكون لم يعن بمسائل التربية عنايته بمباحث العلوم والفلسفة ، ولكنه مع هذا قد فتح لمن أتى بعده أبواباً واسعة للتفكير فى موضوعات التربية . وقد ظهرت آثار آرائه فى مؤلفاتهم وفى أعمالهم التى أصلحوا بها من حال المدارس والتى ساعدت على تكوين النظام الحديث فى التعليم .

(٢) جون ايموس كُومِنْيُوس

زعيم من زعماء المذهب المادى الحسى ، و بطل من الأبطال المعدودين فى تاريخ التربية ، ولد سنة ١٥٩٢ فى قرية « نِقْنِتْر » من أعمال « موراڤيا » وكان أبواه منتظمين فى سلك طائفة دينية تدعى طائفة الإخوان المورافيين . وقد ابتدأ دراسته فى « هِرْبُورْن » ثم فى « هِيدِلْبِرْج » . ولما أتم دراسته اشتغل بالتعليم وأسندت إليه بعد ذلك بيسير رياسة مدرسة فى موراڤيا . وعين قسيساً فى « فَنْك » و بقى على ذلك مدة حتى نكبت هذه المدينة ودهمتها الكوارث سنة ١٦٢١ فضاعت فيها كتبه وجميع ما يملك ، ثم غادرها وأخذ

يطوف فى الأرض متنقلاً من بلد الى بلد حتى استقرت به النوى فى مدينة «لِسّا» من أعمال بولندا ، وفيها أقبل على العمل وأخذ يخرج الى الوجود آراءه فى التربية وطرقه الحديثة فى التعليم . وفى هذه المدينة كتب كتابه « المرشد الأكبر فى التعليم » وعين رئيساً لطائفة الاخوان المورافيين .

وفى سنة ١٦٤١ دعاه مجلس النواب الانجليزى على لسان صديقه «هَارْتلب» ليساعد فى إصلاح نظام التعليم العام فى انجلترا ، فلبى الدعوة وذهب ؛ ولكن الحروب الأهلية التى شبت نيرانها فى هذه البلاد وقتئذ حالت دون تنفيذ هذا الاصلاح ؛ ولذلك لم يلبث أن غادرها الى بلاد السويد سنة ١٦٤٢ حيث طلب اليه القوم هناك أن يضع نظاماً جديداً للمدارس السويدية ، فأجاب طلبتهم ولكنه لم يتمه إلاّ بعد أربع سنوات فى «إلبنج» من أعمال ألمانيا . ثم ما زال بعد ذلك بين حل وترحال حتى استقر به المقام فى أمستردام حيث نشر اكثر مؤلفاته وحيث وافته منيته سنة ١٦٧١ .

ومما لاريب فيه أن آراء بيكون ومذاهبه فى التربية كان لها تأثير كبير فى كومنيوس ، فهى التى حركت فيه الخيال ، ووجهت عنايته الى وجوب توسيع معارف الإنسان ، ونبهته إلى فكرة فى التربية تدعو الى تعليم الأطفال كل شىء فى الوجود . وقد بحث كومنيوس فى هذه الفكر ، وانبعث الى تهذيبها ، وقاده ذلك الى تهذيب النظام الجديد الذى عرف فى ذلك العصر بنظام المعارف الجامعة .

رأيه فى غرض التربية

كان كومنيوس من رجال الدين المغالين فيـــه ، وكان يرى أن قصارى غايات الإنسان أن يسعد سعادة أبدية فى جوار ربه ، وأن حياتنا الأولى إنما هى إعداد وتمهيد لحياة ثانية خالدة . أما هـذا الإعداد فعلى مذهبه يكون من وجوه ثلاثة ، أولها : أن يعرف الانسان نفسه وكل شىء فى هذا الوجود معرفة صحيحة . وثانيها : أن يكون سيد نفسه مسيطراً عليها وعلى كل شىء فى العالم السفلى . وثالثها : أن يسند نفسه وأعماله وكل شىء آخر إلى قدرة الله جل شأنه . وقصارى ذلك أن النفس الإنسانية لن تصل إلى غايتها إلا بصفات ثلاث : العلم ، والفضيلة ، ومحبة الله .

ومن آرائه أن بذور هذه الصفات مغروسة فى الإنسان من مبدأ تكوينه ، وأن المولى جل شأنه يبرز الطفل الى الوجود مزوداً بأصولها مستعدًّا لها بفطرته ، و يرى فوق ذلك أن التربية الصحيحة هى التى ترمى الى إنماء هذه البذور و إنباتها نباتًا حسنًا .

دوائر معارفه

كان أكبر آمال كومنيوس أن يوفق الى ترتيب المعارف والعلوم الإنسانية ترتيبًا جديداً ، وأن يهتدى الى توسيع دائرتها توسيعًا يزيد فى قوة الانسان وسعادته . وقد حاول هذا العمل قبله كثير من الفلاسفة والمربين فى القرن السابع عشر ، فوضع الفيلسوف « بيكون » كتابه الذى سماه « تقدم العلوم » ، ووضع العلامة « هنرى ألْسْتِدْ » استاذ كومنيوس دائرة معارفه المشهورة ، وتبعهم آخرون فى ذلك .

ولم تكن فكرة ترتيب العلوم وتأليف دوائر المعارف بالشىء الجديد فى بابه ، فقد كانت معروفة مألوفة للناس فى القرون الوسطى ، إلاَّ أن الطريقة التى سلكها كومنيوس وغيره من فلاسفة القرن السابع عشر كانت تخالف طريقة الكتاب السالفين . فبينما كان كتاب القرون الوسطى لا يقصدون من دوائر معارفهم إلا أن تكون مجمعًا للأخبار والحقائق ، كان كومنيوس فى دوائر معارفه يرمى إلى استقصاء المعارف الإنسانية وترتيبها ترتيبًا يجمعها حول أصول واحدة ، بحيث لا يترك فى الوجود شيئًا إلا وقد فصل أجزاءه تفصيلاً لا يدع مجالاً للبس أو شك ، وكان يبتدئ كل علم أو فن بأصل عام يتخذه أساسًا يَبْنِي عليه ، ثم يتدرج بك من أعرف الأشياء إلى ما يليه معرفة ثم إلى ما يليه وهلم جرًّا ، حتى يستتم المعارف و يستقصى شواردها . وقد جرى فى كتبه المدرسية على هذا النظام الذى شرحناه ، فقد رتب مسائلها وهذب أبوابها تهذيبًا بحيث جعل كل باب مبنيًّا على ما قبله ومساعداً على فهم ما بعده ، بطريقة تعين على إدراك ما بين مسائل العلم من الصلة المحكمة والارتباط المتين . وسيأتى لنا بيان مسهب فى كتبه المدرسية ، و إن شئت فقل دوائر معارفه .

آراؤه فى نظام المدارس

كان لكومنيوس آراء صائبة فى شئون التربية عامة وفى تنظيم المدارس خاصة . فهو أول من فكر فى جعل مراحل التعليم أربعًا ، وهو أول من نصح بإقامة أنواع أربعة من المدارس تلتئم هى ومراحل التعليم السابقة ، وهو نظام بديع جرى عليه المربون إلى وقتنا هذا .

(١) النوع الأول مدارس الأمهات : ويجب ألا يخلو منها منزل ، ويربى فيها الأطفال ذكوراً وإناثًا حتى يبلغوا السادسة من أعمارهم .

(٢) النوع الثانى مدارس اللغات الوطنية : ويجب أن توجد واحدة منها فى كل قرية أو مجتمع صغير ويدخلها الأحداث ذكوراً وإناثًا فى السادسة من أعمارهم ، ويبقون بها إلى الثانية عشرة ، ويُعلَّمون فيها لغة البلاد تعليمًا صحيحًا ، أما ما كان متبعًا فى القديم من تعليم الطفل اللغة اللاتينية قبل تعليمه اللغة الأصلية ، فقد عده كومنيوس حمقًا وجهلاً .

(٣) النوع الثالث المدارس اللاتينية : ويجب أن توجد واحدة منها فى كل مدينة ، ويدخلها التلميذ فى الثانية عشرة من عمره ، ويبقى بها إلى الثامنة عشرة ، ويتعلم فيها اللغة اللاتينية والآداب القديمة .

(٤) النوع الرابع الجامعات : ويدخلها الطالب فى الثامنة عشرة من عمره ، ويبقى بها ست سنوات يرحل فى أثنائها رحلة طويلة إلى بلد أجنبى يستفيد فيه علمًا وتهذيبًا . وهذا النوع من المدارس خاص بالتعليم العالى ويتخرج فيه المعلمون والمرشدون وقادة الرأى بين الناس .

إن من فكر فى هذا النظام الذى وضعه كومنيوس وتأمل النظام الحديث الذى تسير عليه مدارسنا الآن لم يسعه إلاّ أن يعترف بأن ثانى النظامين صورة من أولهما ، فأنواع المدارس الأربعة التى أرشد اليها كومنيوس إذا ترجمت أسماؤها الى الاصطلاحات الحديثة كانت (١) بساتين الأطفال (٢) والمدارس الابتدائية (٣) والمدارس الثانوية (٤) والمدارس العالية أو الجامعات .

أليس عجيباً أن تثبت آراء كومنيوس فى نظام المدارس سديدة صحيحة يأتم بها المربون ويهتدون بهديها ثلاثة قرون كامله ؟ لو لم يكن لكومنيوس سوى آرائه فى تنظيم المدارس لكانت أكبر شاهد على فضله فى إصلاح التربية وإنهاض التعليم .

آراؤه فى مواد الدراسة

لم يرض كومنيوس بما جرى عليه المربون قديماً من قصر التعليم على مواد قليلة يتخرج فيها الطفل ؛ ورأى أن يعلم الحدث مناهج واسعة تشمل كل فن وعلم . ولم يقصر هذا النظام على المدارس الراقية فحسب ، بل عممه فى مدارس الأمهات ومدارس اللغات الوطنية ، والمدارس اللاتينية ، والجامعات على حد سواء ؛ فأوجب فى مدارس الأمهات أن يؤخذ الحدث بفن التاريخ وتقويم البلدان وعلوم الطبيعة وقواعد اللغة وعلوم البلاغة والمنطق والموسيقى والحساب والهندسة وعلم الفلك ومبادئ الاقتصاد والسياسة والأخلاق والدين والعلوم الإلهية . ولكن إياك أن تفهم أنه أراد أن يُحَمِّل مدارك الطفل مالا تطيقه ، أو أن يَعْرِفَ الحدث من هذه العلوم ما قد تحمله اليك أسماؤها الطويلة العريضة ، فإن ذلك بعيد عن حزمه وبصره بحال الطفل . وانما أراد أن يتصل الطفل اتصالاً قوياً ببيئته ، وأن يستطيع ربط الحوادث بأماكنها وأوقاتها وأسبابها ، وأن يميز بين الشمس والقمر والنجوم ، وأن يفرق بين التلال والوديان والبحار والأنهار ، وأن تكون لديه فكرة واضحة عن الحيوان والنبات ، وأن يعتاد التعبير الصحيح عن ضمائره ، وأن يكوّن فى صغره شيئاً من العادات الفاضلة الحميدة . فهو فى رأيه لم يكلف الأحداث شططاً ، ولم يذهب بهم الى أبعد مما هو مألوف فى بساتين الأطفال فى أوقاتنا الحاضرة .

أما المدارس الأخرى فتعاد فيها دراسة هذه الموضوعات بعينها ولكن بطريقة أحكم وأوسع . ومما قاله فى ذلك : « ان المدارس المختلفة لم تكن لتختلف فيها موضوعات الدراسة ، وانما لتعاد فيها دراسة المواد عينها بطرق مختلفة ؛ فبينما يعلم الحدث فى مدرسة الأمهات كل آثار الوجود بطريقة عامة غير محدودة ، اذا هو يدرسها فى المدارس الأخرى دراسة محدودة كاملة » .

طريقته الطبيعية فى التعليم

كان «كومنيوس» فى وقت واحد فيلسوفًا ومعلمًا ؛ نظر فى فلسفة «بيكون» فانتفع بها واستفاد منها ، ثم أقبل على التعليم بصدق و إخلاص واتخذه مهنة يكسب منها قوته. ولما لم ترقه نظم التعليم ولا طرائقه المسلوكة فى وقته ، طعن عليها وأخذ يبحث عن نظم أصلح وطرق أقوم ، والتمس ذلك فى الطبيعة فاهتدى الى أن الطرائق السديدة لا تكون الاَّ فى متابعتها والسير على قوانينها ومناهجها ، لأنها ثابتة لا يصيبها وهن ولا ينالها فساد ، فكل بنيان يقام عليها ، يقام على أصول ثابتة وقواعد راسخة لا تزعزعها الأيام ولا تحطمها حوادث الزمان . ومن هنا أوجب الاقتداء بالطبيعة فى أعمالها والاحتذاء بها فى طرائقها وأساليبها . ثم فصَّل أعمالها تفصيلاً ، وقاس بها أعمال التربية على أسلوب بديع ساعده على تكوين طريقته المشهورة فى التعليم بالطريقة الطبعية ، ولنضرب لك أمثلة للإيضاح :

(١) إن أعمال الطبيعة جميعها تجرى بهدوء وسكينة ، لا يصحبها عَنَت ولا تستخدم فيها مشادّة ، فيجب أن تجرى أعمال التعليم على هذا المثال ، فلا يؤخذ الطفل بالقهر والعنف ، ولا يساق الى العمل سوقًا ، و إنما يجب أن ينبعث الطفل الى التعلم انبعاثًا طبعيًّا مبنيًّا على ميوله ورغباته ، كما ينبعث السمك الى السباحة ، والطير الى الطيران ، والحيوان الى الجرى فى الحقول ، فإن الميل الى العلم وتحصيله – كما قال إرسطو – طبيعة فى الإنسان

(٢) جرت الطبيعة على أن تبتدئ كل عمل من صلبه لا من أطرافه ، وأن تكوّن فى بادئ الأمر هيكله العظمى أو شكله الإجمالى ، ثم تنتقل بعد ذلك الى إكماله وتسوية أجزائه ، ولقد احتذى مثالها الصناع الماهرون فهم أولاً يرسمون الخطة الإجمالية للعمل الذى يريدونه ، ثم يتدرجون من ذلك الى التفاصيل الظاهرة الواضحة ، ومنها الى التفاصيل الدقيقة ، ثم يتجهون فى آخر الأمر الى زخرفة العمل وتجميله . فعلى المربى ألاّ يحيد عن هذا النموذج فى تعليم الأحداث ، فيجب أن يبتدئ معهم اللغات والعلوم بطريقة إجمالية ، ثم يعيد لهم دراستها بطريقة أوسع يذكر فيها القواعد و يكثر من الأمثلة التطبيقية ، ثم يعيدها مرة ثالثة مع الإسهاب والتطويل ولا يبخل عليهم بشواذ اللغة واختلاف الآراء . أما الطريقة القديمة التى جرت على الإسهاب فى العلوم فى أول مرة بحيث لا يدع المعلم قاعدة ولا مثلاً شاذًّا إلاّ ذكره ، فهى طريقة عقيمة بعيدة عن طرائق الطبيعة .

(٣) جرت سنة الطبيعة على أنها إذا شرعت فى العمل أقبلت عليه بصدق وثبتت عليه من غير أن تنقطع عنه لحظة ، فإذا بُذِر البذر فى الأرض وابتدأ الإنبات فإن الطبيعة لا تقف لحظة عن العمل ، بل تستمر حتى يبلغ الزرع أشده و يصل الى غاية كماله . فعلينا أن نراعى ذلك فى التعليم وألا نخول التلميذ بعد انتظامه فى سلك الدراسة أن ينقطع عنها يومًا واحداً لغير سبب معقول ، فقدشاهدنا فساداً عظيمًا يلحق التعليم من جراء انقطاع الأطفال عن التدريس ثم عودتهم اليه .

(٤) تحمى الطبيعة أشياءها وتحفظها من الخَطَر ، فالطير مثلاً يحمى صغاره فيضعها فى أعشاش لا تنالها الأيدى حتى تنمو وتقتدر على الطيران ، وأنواع الحيوان كلها مُجهزة بما تدافع به عن أنفسها و بما يحميها عند كل اعتداء ، فلذلك يجب ألا نترك الأطفال فريسة لخلان السوء أو للأخيلة والمعتقدات الفاسدة التى ملئت بها الكتب من قديم .

كتبه المدرسية

كان كومنيوس مشتغلاً بالتربية جميع حياته تقريبًا ، فقد كان فى أيامه المدرسية الأولى كثير الشغف بمسائل التربية . ولما أتم دراسته فى الجامعة اتخذ التعليم فى المدارس مهنة ووهب نفسه لخدمته ، ولم يمض عليه زمن طويل حتى اشتهر أمره فَوُلِّىَ إدارة مدرسة فى موراڤيا ، ولما عين فيما بعد قسيسًا لم ينفض يده من التعليم ، بل جمع بين مراقبة المدارس وأعمال الكنائس معًا . ولما بلغ من العمر ستين سنة رجع الى مزاولة التعليم ، فأسندت اليه إدارة معاهد علمية كبيرة ، فأصلح من أحوالها وسما بها الى أقصى غايات الكمال . و بهذا يتبين لك أن كتبه المدرسية لم تكن مؤسسة على نظريات علمية محضة ، و إنما قامت على نظريات علمية عملية انتجتها المرانة الطويلة والبحوث الفنية الصحيحة فى حجرات التدريس . والى القارئ وصفًا موجزاً لبعض من كتبه المشهورة الممتعة .

(١) باب اللغات المفتوح : هذا أبعد كتبه ذكراً وأطيرها صيتًا ، ولو لم يكن له سواه لكفاه شرفًا وفخراً . وضعه كومنيوس سنة ١٦٣١ ليجمع فيه شتات العلم ، وليُسهِّل به دراسة اللغة اللاتينية ، فرأى فيه الطلاب وتلاميذ المدارس مرشداً ومعينًا ،

فأقبلوا على قراءته والانتفاع به قرونا عدة ونبذوا به كل كتاب سبقه ، ولا عجب فقد توخى واضعه أن يجعله غزير المادة محكم الترتيب طبعى الطريقة . ذلك أنه عمد الى بضعة آلاف من الكلمات اللاتينية ذوات المعانى المألوفة والمسميات المعروفة بين الناس عامة ، فنظمها فى جمل مختلفة ورتبها ترتيبًا خاصًّا يرى فيه القارئ سلسلة طويلة من الموضوعات مرتبطًا بعضها ببعض ، بحيث يتكون من مجموعها دائرة معارف واسعة يستعين بها القارئ على فهم الكون وإدراك ظواهره بجانب ما يجنيه من الفوائد اللغوية ، فإنه لا يكاد يستتم قراءته حتى يصل الى غاية بعيدة من البصر بمفردات اللغة اللاتينية وأساليبها . وقد قسم المؤلف كل صفحة من صفحات الكتاب الى نهرين : الأيمن منهما للمفردات والجمل اللاتينية ، والأيسر لترجمة هذه الى اللغة الوطنية . وقد بذل منتهى الوسع فى أن تكون مواد الكتاب مختارة من الموضوعات التى يألفها الأطفال ، والتى تقع دائمًا فى دائرة إحساسهم وتجاربهم . ومن طالع هذا الكتاب وأجال النظر فى اختلاف موضوعاته وفكر فى ترتيب مسائله ، خرج منه بفكرة كاملة عن نظام المعارف الجامعة الذى يعد من أخص مميزات التربية فى القرن السابع عشر ، وعرف فوق ذلك الموضوعات الحديثة التى مال المربون فى هذا العصر الى إدخالها فى مناهج الدراسة[1] .

(٢) الدهليز : لم يمض على الكتاب الأول زمن طويل حتى أحس الناس صعوبته وتبينوا أنه فوق مدارك المبتدئين ، فرأى كومنيوس أن يقربه الى أفهامهم ، فألف

---

(١) حوى هذا الكتاب مائة موضوع فى مائة باب ، والى القارئ بعضا منها على الترتيب : أصل الدنيا — العناصر — السماء — النار — الشهب — الظواهر الجوية — الماء — الارض — الحجارة — المعادن — الاشجار — الثمار — الاعشاب والشجيرات — الحيوان (فى أبواب عدة) — الانسان — جسم الانسان — أعضاؤه الظاهرة — أعضاؤه الباطنة — صفات الجسم — الامراض — القروح والجروح — الحواس الظاهرة — الحواس الباطنة — العقل — الارادة — العواطف — الفنون الآلية (فى أبواب عدة) — المنزل وأجزاؤه — الزواج — الاسرة — الحكومة — الاقتصاد المدنى (فى أبواب عدة) — قواعد اللغة — علوم البلاغة — المنطق — الاخلاق — الالعاب — الموت — الاقبار — العناية الالهية — الملائكة . وقد بذل المؤلف منتهى الوسع فى استقصاء جميع التراكيب النحوية وعرضها فى هذا الكتاب عرضا يستطيع به المعلم الحاذق أن يستنبط منها قواعد اللغة تامة كاملة .

كتاباً آخر دعاه «الدهليز»، وقصد منهُ أن يكون تمهيداً لكتابهِ الأول. ولقد بالغ فى تسهيله ما شاء، فبينما كان (باب اللغات المفتوح) يحوى بضعة آلاف من الكلمات اللاتينية، لم يحو الدهليز منهـا سوى بضع مئين هى أكثرها شيوعاً وأعمها استعمالا.

(٣) عالم المحسات المصورة: هذا أنجح كتبه وأعظمها خطراً، وضعهُ سنة ١٦٥٧ وجرى فيهِ على طريقته المشهورة من العناية بالمحسات، فملأه بصور الأشياء التى تكلم فيها. ولقد نال هذا الكتاب شأناً رفيعاً وخطراً عظيماً لأمرين: أولهما أنه كان أول كتاب مَدْرسى ظهر للنـاس مصوَّراً، وثانيهما أن واضعه تدرج فى موضوعاته من المحسات الخاصة الى المعقولات العامة بطريقة استنباطية صحيحة واضحة. وكان كل فصل من فصول هذا الكتاب مبدوءاً بصورة متقنة ذات أجزاء عدة، لكل جزء رقم خاص يماثل رقم الكلمة أو الجملة التى تعبر عنه.

المرشد الأكبر فى التعليم

كتب كومنيوس فى التربية والتعليم رسائل ممتعة وكتباً مدرسية نافعة يُربى عددها على مائة، الا أن كتابه الذى دعاه «المرشد الأكبر فى التعليم» كان كأنه الفرا فى جوفه كل الصيد، فقد ضمنه كل شىء ذكره فى كتبه ورسائله. وقد كان هذا الكتاب من باكورة أعماله، أتمه سنة ١٦٣٢ الا أنه تأخر فى طبعه ونشره كثيراً. وقد ظهر هذا الكتاب للناس أول مرة مترجماً الى اللغة اللاتينية سنة ١٦٥٧، ولم يطبع باللغة التى كتب بها الا فى أواسط القرن التاسع عشر. وقد أجمع المربون على أنه لم يكتب فى موضوعهِ مثله، فقد كان خير كتاب أخرج اليهم فاهتدَوْا بهديهِ واستضاءوا بنوره.

كان العصر الذى ظهر فيه هذا الكتاب من العصور التى زهت فيها فنون التربية، وأقبل فيها المربون على البحث والكتابة فى طرائق التعليم وأنظمته، فألفوا الكتب والرسائل الممتعة، إلاَّ أن «المرشد الأكبر فى التعليم» لم يكن ليقاس به كتاب آخر كتب فى عصره، فقد كان من إحكام الوضع وإتقان البحث وحسن الترتيب بحيث

يعد فى صفوف المؤلفات الحديثة فى التربية . ولقد رسم كومنيوس فى هذا الكتاب خططاً سديدة ووضع أصولاً ثابتة تسير عليها التربية فى عصورها المقبلة* .

---

* من المفيد هنا أن نذكر للقارىء ما فى هذا الكتاب النفيس من الموضوعات :

(١) الانسان أشرف المخلوقات وأعزها سلطانا

(٢) قصارى غايات الانسان لا تنال فى هذه الحياة

(٣) ما هذه الحياة الدنيا الا دار يتزود الانسان فيها لحياة أخرى دائمة

(٤) الزاد الآخرة يتضمن أموراً ثلاثة : أولها أن يعرف الانسان نفسه ، وثانيها أن يقدر على سياسة نفسه ، وثالثها أن ينسب نفسه الى الله جل شأنه

(٥) لا يصل الانسان الى هذه المراتب الثلاث حتى يتصف بثلاث : العلم ، والفضيلة ، والتقوى . وقد خلق الله الانسان وزوده من بدء خلقته بأصول هذه الصفات ، فهو مستعد لها بطبيعته

(٦) التربية ضرورية للانسان

(٧) لا تؤثر التربية فى الانسان تأثيراً كبيراً الا فى أيام طفولته ، فاذا شب وكبرت سنه أصبح تأثيرها ضئيلاً

(٨) لا بد من انشاء المدارس لتربية النشء

(٩) يجب أن يرسل الاطفال جميعاً الى المدارس ، ولا فرق فى ذلك بين الذكور والاناث .

(١٠) يجب أن يكون منهج التعليم فى المدارس واسعاً بحيث يشمل جميع العلوم والفنون

(١١) لم تنشأ الى الآن مدرسة كاملة ، فمعاهد التعليم كلها ناقصة تحتاج الى الاصلاح والتحسين

(١٢) اصلاح المدارس ميسور

(١٣) يجب أن يؤسس الاصلاح على نظام ثابت محكم

(١٤) يجب أن يكون النظام التام المحكم فى التعليم مأخوذاً من الطبيعة

(١٥) مبدأ توسيع دائرة الحياة

(١٦) الطريقة المنتجة فى التعليم

(١٧) المبادىء العامة لجعل التعليم والتعلم سهلين سارين

(١٨) المبادىء العامة فى اتقان التعليم والتعلم

(١٩) الاصول العامة للاسراع فى التعليم

(٢٠) طريقة العلوم

(٢١) طريقة الفنون والصنائع

(٢٢) طريقة اللغات

(٢٣) طريقة الأدب والتهذيب

(٢٤) طريقة أخذ النفوس بالدين

(٢٥) اذا أردنا أن نصلح معاهد التعليم اصلاحاً يوافق الدين الصحيح ومبادئه ، وجب ألا ندخل فيها كتاباً الفه وثنى ، واذا دعت الضرورة الى هذا أخذنا من الحذر والحيطة اكثر مما كان يؤخذ فى الايام السالفة .

(٢٦) النظام المدرسى

(٢٧) التقسيم الرباعى لمعاهد التعليم

(٢٨) الخطة الاجمالية لمدارس الامهات

(٢٩) الخطة الاجمالية لمدارس اللغات الوطنية

(٣٠) الخطة الاجمالية للمدارس اللاتينية

(٣١) الخطة الاجمالية للجامعات

(٣٢) النظام العام فى التعليم

(٣٣) ما يجب اعداده قبل البدء فى هذه الطريقة العامة للتعليم .

obeikandl.com

آثاره فى التربية

كانت آراء كومنيوس وكذلك أعماله مؤسسة على المذهب المادى الحسى ، إلا أنه أدخل فى هذا المذهب من أنواع الإصلاح وأضاف إليه من الأصول والقواعد ما جعل له المكان الأرفع والشرف الأسمى بين زعماء هـذه الحركة . وان نظرة واحدة الى جملة أعماله فى التربية ونتائج جهوده فى التعليم لتغنى عن الإسهاب فى بيـان فضله ، ولتكفيك فى الحكم بأنه كان زعيم المربين و بطل المصلحين فى القرن السابع عشر . واليك كتبه المدرسية تنبئك بواسع علمهِ وعظيم مقدرته ، فإنها فاقت كل الكتب التى صنفت فى موضوعها ، ولذلك أقبل الناس عليها إقبالاً ، وتهافت عليها الطلاب تهافتاً ، وسرعان ما ترجمت الى مختلف اللغات غربية وشرقية . نقلت الى اللاتينية والإغريقية والبوهيمية والألمانية والسويدية والانجليزية والفرنسية والهنغارية وغيرها من اللغات الأوربية ، ثم الى العربية والتركية والروسية والمغولية وغيرها من اللغات الأسيوية . ولقد بقيت كتبه هذه قروناً عدة وهى تعد أكبر ذخيرة للشبان يستعينون بها على تحصيل اللغة اللاتينية .

وعلى الرغم مما كان للرجل من القدم الراسخة فى شئون التربية والخبرة الواسعة بأنظمة التعليم ، بقيت آراؤه ومذاهبه سجينة فى بطون الكتب أحقاباً طويلة ، ولم تظهر لها فى مدارس عصره إلا آثار ضئيلة . أضف إلى ذلك أن « كتاب المرشـد الأكبر فى التعليم » على نفاسته وعظيم شأنه ، كاد يبقى الى أواسط القرن التاسع عشر مجهولاً لم تعرفه إلا فئة قليلة من الناس .

فى ذلك الوقت لا قبله هب قوم من الألمان لهم شغف بالبحث والتنقيب فى أعمال المربين ، فعرفوا قيمة الكتاب وقدروه حق قدره ، ثم نشروه للملأ ووجهوا اليه الأنظار فعلم الناس حينئذ أن هذا المادى الحسى الذى طواه الموت منـذ قرنين كاملين كان أول من اشتغل بالتربية بروح علمية ، وأول من سار بها على هذا النحو سيراً عملياً فى حجرة التدريس .

كانت لآراء كومنيوس آثار ظاهرة فى أعمال المربين الذين أتوا بعده ، ولا سيما فرانك . وروسو . و بستالوتزى . وهربارت . وفروبل . كذلك كانت آثارها واضحة فى مناهج الدراسة وطرق التدريس المسلوكة فى معاهد التعليم .

آثار المذهب المادى الحسى فى المدارس

(١) المدارس الابتدائية : كان هـذا المذهب على قوته وكثرة أشياعه بطىء التأثير والظهور فى المدارس . وقد كانت المدارس الابتدائية أسبق المدارس تأثراً بهِ ، فقد ظهر فى جميعها ميل ثابت إلى التوسع فى دراسة اللغة الوطنية والبداءة بتعليم قواعدها ، على خلاف ما كان مسلوكا فى القديم من البداءة بقواعد اللغة اللاتينية . وفوق ذلك وُجهت العناية التامة إلى إدخال مبادىء العلوم الطبعيـة فى المدارس ، زيادة على دراسة القراءة والكتابة والحساب والدين والغناء ، ففى سنة ١٦٤٢ وضع أحد المربين الألمان « أَنْدِرْياس رِيهار » منهجًا للتعليم فى مدرسة « جوثا » ضمنه العلوم الطبعية ، وأوجب فيه أن يمرن الأطفال على قياس الزمن بالمزاول والساعات الزجاجية ، وأن يدربوا على ملاحظة الأنواع المألوفة من الحيوان والنبات ، وأن يؤخذوا بكثير من مبادئ العلوم العملية السهلة . وفى جهات أخرى من الممالك الألمانيـة عمل كثير من المربين على إدخال العلوم الطبعية فى المدارس الابتدائية الخاصة والعامة . وحدث مثل ذلك فى ايطاليا وفرنسا وهولندا وانجلترا .

(٢) المدارس الثانوية : للتعليم الثانوى فى ألمانيا مدارس متنوعـة ذات نظم مختلفة ، فمنها مدارس الآداب ، ومدارس الأعيان ، ومدارس الصوفية ، وغيرها كثير ، ولم تكن كلها سواء فى التأثر بالحركة المادية الحسية ، فبينا بقيت مدارس الآداب بعيدة عن التأثر بهذه الحركة الى القرن الثامن عشر ، كانت مدارس الأعيان فى أواسط القرن السابع عشر تهتم بدراسة اللغات الحديثة للأمم المجاورة وتُعْنى بالعلوم الطبعية . ولم يكد هذا القرن ينتهى حتى دخلت مبادئ كومنيوس تامة الى المدارس الدينية المعروفة فى ألمانيا بمدارس الصوفية ، فقد أسس « فرانك » الصوفى مدرسته الثانوية ، وضمن

منهاج دراستها اللغة الوطنية والحساب والجغرافيا والعلوم الطبعية والهيئة والتشريح والمواد الطبية . وأنشأ زميله « سِمْلَر » مدرسة سماها المدرسة المادية ، وذهب فيها إلى غاية أبعد ، فانه توسع فى دراسة اللغة الوطنية والحساب والعلوم الطبعية . ثم جاء « هِكَر » فأسس مدرسته المادية فى برلين سنة ١٧٤٧ ، ونقل اليها نظام التعليم المادى الذى جرت عليه المدارس الصوفية ، ولم يمض على ذلك إلا زمن يسير حتى أُسست مدارس ثانوية كثيرة على هذا النمط فى جميع الأنحاء البروسية .

أما التعليم الثانوى فى انجلترا فقد كانت مدارسه أيضًا متنوعة مختلفة ، ولم تكن درجات التأثر فيها بالحركة الجديدة متساوية ، فبينا كانت المدارس اللاتينية والمدارس العامة قليلة الحظ من العلوم الطبعية ، كانت المجامع العلمية تموج بهذه العلوم موجًا .

(٣) الجامعات : كانت الجامعات أبطأ أنواع المعاهد العلمية فى التأثر بالحركة المادية الحسية ، وقد كانت جامعة «هَالْ» أسبق الجامعات إلى اتباع هذا المذهب ، فقد سارت على طريقته منذ نشأتها تقريبًا سنة ١٦٩٢ ، أما جامعة « جُوتِن » التى كانت الثانية فى التأثر بهذه الحركة فلم تبدأ الأخذ بهذا المذهب الا سنة ١٧٣٧ . ولم يمض على ذلك إلا يسير حتى فشت هذه الحركة فى الجامعات ، ولم يكد القرن الثامن عشر ينقضى حتى أنشأت كل جامعة ألمانية مناصب لأساتذة العلوم الطبعية .

أما فى انجلترا فقد كانت الجامعتان الشهيرتان اكسفورد وكمبردج من أبطأ الجامعات فى تقبل الموضوعات الجديدة ، فلم تنل واحدة منهما شهرة فائقة فى العلوم الطبعية إلا فى القرن التاسع عشر ، على أن هذه الحركة قد ابتدأت فى كمبردج من قديم ، فقد ثَبَّتَتْ هذه الجامعة أقدامها فى العلوم الطبعية والرياضية أيام أستاذها الكبير اسحق نِيُوتُن (١٦٦٩ – ١٧٠٢) . وفى أثناء القرن الثامن عشر أُنشئت فيها مناصب عدة لأساتذة هذه العلوم .